المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الطائف

مجلة جامعة الطائف

المجلد الأول - العدد الرابع
ذو الحجة 1431 هـ ـ ديسمبر 2010م

الآداب والتربية

مجلة جامعة الطائف

للآداب والتربية

مجلة علمية محكمة

المجلد الأول - العدد الرابع

ذو الحجة ١٤٣١ هـ - ديسمبر ٢٠١٠ م

جامعة الطائف

التقديم والتأخير في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

دراسة نحوية دلالية

د . بريكان سعد الشلوي

أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الطائف

الملخص

يعرض البحث لدراسة التقديم والتأخير في القرآن الكريم من خلال بعض ما ورد في كتب متشابه القرآن الكريم من أمثلة هذا النوع ونماذجه.

وذلك وفق دراسة نحوية دلالية تعنى بدراسة التقديم والتأخير في متشابه القرآن، سواء على المستوى النحوي الذي يعنى باختلاف الرتبة النحوية، أو على المستوى الدلالي الذي يعلل لهذا التقديم والتأخير من جهة مراعاة السياق والمقاصد، لا من جهة ما توجبه أو تجيزه أنظمة اللغة أو تمنعه.

وقد بيّن البحث أنماط التشابه اللفظي في القرآن الكريم، وموضع التقديم والتأخير منها، وأنه نوع من التصرف في التركيب والعدول به عن أصل الترتيب لغاية مقبولة.

وتم تقسيم البحث وفق صور وأنماط التركيب النحوي، فقد يكون التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر، وقد يتقدم الفضلة على أحد ركني الجملة، وحينا تتقدم بعض الفضلات على بعض، وكل ذلك لأغراض قد تكون نحوية، وقد تكون دلالية، ذكرت في ثنايا البحث.

لقد حفل التراث العربي الإسلامي بعدد من المصنفات التي أفردت للبحث في المتشابه اللفظي للقرآن الكريم، إما بجمع هذه الآيات المتشابهة ؛ ليقف الحفاظ على الفروق التي بينها رغبة في إتقان الحفظ، وإما بمحاولة بيان الفروق الدلالية بين ما تشابه من الآيات،[1] سواء ما كان منه على المستوى المعجمي أو الصوتي أو الصرفي أو النحوي.

وترجع أهمية الدراسة إلى كثرة ما أثارته هذه القضية من الجدل في القديم والحديث ، حيث اعتمد عليها المغرضون والطاعنون في القرآن الكريم؛ لإثارة الشبهات والشكوك لدى العامة وذوي الجهالة بنظام هذه اللغة وقواعدها الثابتة.

ومن ثم فإن الحاجة لا تزال ملحة للدراسة المتأنية حول ما في هذا الكتاب المعجز من صور وأقسام عديدة للتشابه.

ومن هذه الأقسام ، **قسم التقديم والتأخير في المتشابه اللفظي** موضوع هذا البحث – وهو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسعُ التصرُّف ،بعيدُ الغاية ، لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعة ويُفضي بكَ إلى لطيفة، ولا تزالُ ترى شِعراً يروقُك مسمَعُه، ويلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أن راقك ولطُف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان» .[2]

تعريف المتشابه اللفظي:

عرف الكرماني الآيات المتشابهات بأنها هي: «التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة ،ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين، أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان»[3].

وبنحو من ذلك عرفه كلٌّ من الإسكافي والغرناطي[4].

وذكر ابن جماعة أن موضوع كتابه هو الآيات التي تكررت معانيها واختلفت ألفاظها ، من اختلاف ألفاظ معان مكررة، وتنويع عبارات فنونه المحررة، من تقديم وتأخير، وزيادات ونقصان، وبديع وبيان، وبسط واختصار، وتعويض حروف بحروف أغيار[5]

ولقد حدَّ الزركشي والسيوطي مفهوم المتشابه بأنه: «هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء»[6]

صور التشابه وموقع التقديم والتأخير منها:

نستطيع من خلال ما سبق عرضه من أقوال العلماء الذين تعرضوا لقضية المتشابه بالدراسة والتحليل- أن نقف على صورتين للتشابه في القرآن الكريم:

الصورة الأولى: اتفاق آيتين أو أكثر في بعض الألفاظ مع الاختلاف بينها بصور ووجوه شتى، وهذا هو ما يعرف بالمتشابه اللفظي.

الصورة الثانية: اتفاق آيتين أو أكثر في جميع الألفاظ والمعاني مع الاختلاف في الغرض أو المقام أو السياق. وهذا ما يعرف بالتكرار.

وهذه الصورة الأخيرة خارجة عن موضوع بحثنا؛ لوقوعها في دائرة الدراسات البلاغية.

أما الصورة الأولى: فلها صور وأقسام فرعية ، تتمثل في دراسة الصور التالية:

١- **الفروق الصوتية:** اختلاف التشكيل الصوتي.

٢- **الفروق المعجمية:** (إبدال كلمة بأخرى).

٣- **الفروق الصرفية:** (إبدال صيغة بأخرى).

٤- **الفروق النحوية:** ولها صور منها :

(أ) اختلاف التقديم والتأخير .

(ب) اختلاف الحذف والذكر .

(ت) اختلاف التعريف والتنكير .

(ث) اختلاف الفاعل .

(ج) اختلاف المفاعيل .

(ح) اختلاف المتعلق .

(خ) اختلاف النعت .

(د) اختلاف صيغة النداء ....الخ .

وسوف يقتصر هذا البحث على دراسة ظاهرة واحدة من ظواهر التشابه السابقة: هي اختلاف الآيتين المتشابهتين بالتقديم والتأخير، وهي صورة من صور الاختلاف النحوي في أنماط التشابه .

مفهوم التقديم والتأخير:

يراد بالتقديم والتأخير مخالفة عناصر الجملة ترتيبها الأصليّ في السياق، فيتقدّم ما حقه التأخير، ويتأخر ما حقه التقديم.

ومن المتقرّر أن ثمة ترتيبا لازما لا يمكن مخالفته، وهو ما يعرف بالرتبة المحفوظة، وثمة ترتيب غير لازم، وهو ما يعرف بالرتبة غير المحفوظة. وقد أشار القدماء إلى قضية رعاية الرتبة، كما نلاحظ ذلك فيما ذكره سيبويه عن الخليل.[٧]

وثمة أسباب معروفة للخروج على الترتيب الأصلي حيث لا يكون لازما؛ ومن أهمّ هذه الأسباب:

١- أن تكون العلاقة بين العنصرين علاقة المحكوم عليه بالحكم، فمقتضى الأصل أن يتقدّم المحكوم عليه ويتأخّر الحكم، كتقدُّم المبتدإ على الخبر.

٢- أن تكون العلاقة بينهما علاقة العامل بالمعمول، فمقتضى الأصل أن يتقدّم العامل ويتأخّر المعمول، كتقدُّم الفعل على المفعول.

٣- أن تكون العلاقة بينهما علاقة المقدّمة بالنتيجة، فمقتضى الأصل أن تتقدّم المقدّمة وتتأخّر النتيجة، كتقدُّم فعل الشرط على جواب الشرط.

٤- أن تكون العلاقة بينهما علاقة الكلّ بالجزء المأخوذ منه، فمقتضى الأصل أن يتقدّم الكلُّ ويتأخّر الجزء، كتقدُّم المُستثنى منه على المُستثنى.

٥- أن يكون التقدُّم لحفظ الترتيب المعهود في نظام اللغة، كتقدُّم الفعل على الفاعل.

والحاكم للتقديم والتأخير في النحو العربي هو الرتبة، التي يمكن تعريفها: بأنّها جزءٌ من النظام النحويّ يقصد به «أن يكون للكلمة موقع بالنسبة لصاحبتها كأن تأتي سابقة لها أو لاحقة، فإذا كان الموقع ثابتا سُمّيت الرتبة محفوظة، وإن كان الموقع عرضةً للتغير سُمّيت غير محفوظة»[٨].

ومعنى ذلك أن الرتبة تحدّد موقع الكلمة من بناء الجملة، بمعنى: أن تأتي إحداهما أوّلاً والأخرى ثانيًا، ويمتنع العكس إذا كانت الرتبة محفوظة، أمّا في حالة الرتبة غير المحفوظة فيعتبر ترتيب الكلمات في السياق أصلٌ افتراضيٌّ اتّخذه النظام النحويُّ، وقد يُحتّم الاستعمال -حسب المقام والغرض- خلافه بتقديم المتأخّر.

ويُوصف العنصر المتقدّم في الرتبة المحفوظة بأنّه متقدّم وجوبًا - ومن ذلك تقدُّم الموصول على الصلة، والموصوف على الصفة، وحرف الجرّ على المجرور، وغيرها -أمّا في الرتبة غير المحفوظة كالّتي بين المبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول به، والضمير والمرجع، وغير ذلك فالتقديم والتأخير اختيارٌ أسلوبيٌّ جائزٌ للمتكلّم يعبّر به عن مقصده.

وقد يُلغى هذا الاختيار وتُحفظ الرتبة: إمّا لاتّقاء لبس، كما في (ضرب موسى عيسى)، أو لاتّقاء مخالفة القاعدة، كما في (رأيتُك)، فانتقال الرتبة من دائرة الرتبة غير المحفوظة إلى دائرة الرتبة المحفوظة أمرٌ وارد.

مخالفة الأصل فيهما:

إذا كان الحديث عن التقديم والتأخير ينطلق من منطلق الرتبة فإن الترتيب الّذي جعله النظام النحويُّ أصلاً في الرتبة غير المحفوظة لا يُسأل عن علّته في غالب الأحيان، وإنّما يُسأل عمّا جاء على خلافه.

فالتقديم والتأخير نوعٌ من التصرُّف في التركيب والعدول عن أصل ترتيب عناصره لغاية، وهذا التصرُّف لا يكون لغير علّة مقبولة، وإلا كان محض عبث تتنزه اللغة عنه.

حاصل القول في ظاهرة التقديم والتأخير (الجائز) أنّها تفتقر إلى أمور:

الأوّل: تحديد الأصل في ترتيب عناصر التركيب.

الثاني: تحديد العدول عن الأصل في هذا الترتيب.

الثالث: البحث عن علّة هذا العدول وتأثيره في المعنى والدلالة.

هذا وسوف يعنى هذا البحث في دراسته بأهم الصور المذكورة للتقديم والتأخير في متشابه القرآن.

صور التقديم والتأخير:

تعدُّ ظاهرة التقديم والتأخير من أوضح الظواهر في كتاب الله تعالى، ودراسة هذه الظاهرة دراسة قديمة متأصّلة، وقف عليها الصحابة رضوان الله عليهم في تفسيرهم لكتاب الله تعالى:

فمن ذلك ما رواه الطبري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

«عن ابن عباس في هذه الآية قال: إنهم إذا رأوه فقد رأوه، إنما قالوا: جهرةً أرنا الله. قال: هو مقدّم ومؤخر.»[1]

وهذا صورة من صور التقديم والتأخير في متشابه القرآن – المذكورة في هذا البحث - حيث تتقدم بعض الفضلات على بعض: وهنا تقدمت جملة مقول القول – في محل المفعولية – على الحال: (جهرة).

ولذا فقد نصَّ الطبري على وجود هذا الفن في كلام العرب ووجوده في كتاب الله تعالى. فقال: «فبيِّن -إذْ كان موجودًا في كلام العرب الإيجازُ والاختصارُ، ...... وتقديمُ ما هو في المعنى مؤخر، وتأخيرُ ما هو في المعنى مقدّم، والاكتفاءُ ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهارُ ما حظه الحذف- أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كلّ ذلك له نظيرًا، وله مثلا وشبيهًا».(١)

وقد كان لسيبويه الريادة في هذا الباب -التقديم والتأخير- ؛ وذلك حيث تعرض له في: باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول، فقال: «وذلك قولك: ضرب عبد الله زيداً. فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب، وانتصب زيد لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل. فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيداً عبد الله ؛ لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ. فمن ثم كان حدُّ اللفظ أن يكون فيه مقدّماً، وهو عربيٌّ جيِّدٌ كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم».(٢)

ويفهم من كلام سيبويه: «لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً» أن من الألفاظ ما هو مقدم على نية التأخير، ومنه ما ليس كذلك.

وهذا ما ينص عليه عبد القاهر الجرجاني حيث يجعل التقديم على وجهين ؛ فيقول :

واعلمْ أنَّ تقديمَ الشيء على وجهين:

تقديم يقالُ إنه على نيَّة التأخير وذلك في كلِّ شيء أقررْتَه مع التقديم على حُكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كانَ فيه، كخبر المبتدأ إذا قدَّمْتَه على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، كقولك: منطلقٌ زيدٌ، وضربَ عمراً زيدٌ ، معلومٌ أن «منطلق» و«عمراً» لم يَخرجا بالتقديم عمَّا كانا عليه من كون هذا خبرَ مبتدأ ومرفوعاً بذلك وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله، كما يكونُ إذا أُخِّرتَ .

وتقديم لا على نيَّة التأخير ولكنْ على أن تنقلَ الشيءَ عن حُكمٍ إلى حكم، وتجعل له باباً غيرَ بابه وإعراباً غيرَ إعرابه. وذلك أن تجيءَ إلى اسمين يحتملُ كلُّ واحدٍ منهما أن يكونَ مبتدأً ويكونُ الآخرُ خبراً له، فتقدمُ تارةً هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا، ومثالُه ما تصنعُه بزيدٍ والمنطلقِ، حيث تقولُ مرةً: زيدٌ المنطلقُ، وأخرى: المنطلقُ زيدٌ. فأنت في هذا لم تقدِّم المنطلق على أن يكونَ متروكاً على حُكْمه الذي كان عليه مع التأخير فيكونُ خبرَ مبتدأ كما كانَ، بل على أن

تنقُلُه عن كونِهِ خبراً إلى كونه مبتدأ. وكذلك لم تؤخّر زيداً على أن يكون مُبتدأ كما كان، بل على أن تُخرجَه عن كونه مبتدأ إلى كونِه خبراً .

وأظهرُ من هذا قولُنا: ضربتُ زيداً وزيدٌ ضربتُه. لم تقدم زيداً على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعه بالابتداء وتشغلَ الفعلَ بضميره وتجعله في موضع الخبر له »(٦٢)

وقد أشار القدماء إلى نحو ما ذكره عبد القاهر هنا من هذا التقسيم. فمن ذلك ما ذكره سيبويه عن الخليل في قوله: «وزعم الخليل –رحمه الله– أنه يستقبح أن يقول قائم زيد. وذاك إذا لم تجعل قائماً مقدَّماً مبنياً على المبتدأ، كما تؤخّر وتقدّم فتقول: ضرب زيداً عمرٌو، وعمرٌو على ضرب مرتفع. وكان الحدّ أن يكون مقدَّماً ويكون زيد مؤخَّراً. وكذلك هذا، الحدّ فيه أن يكون الابتداء فيه مقدَّماً. وهذا عربي جيد. وذلك قولك تميميٌّ أنا، ومَشنوءٌ مَن يشنَؤك، ورجلٌ عبدُ الله، وخزٌّ صُفَّتك»(٦٣)

ويوضح ذلك السيرافي بقوله:«يريد أن قولك :(قائم زيد) قبيح إن أردت أن تجعل قائم مبتدأ، والنية فيه التأخير. كما تقول: «ضرب زيدا عمرو» والنية تأخير زيد. تريد الذي هو مفعول، وتقديم عمرو الذي هو فاعل»(٦٤)

فنلاحظ أن «التقديم عند الخليل إنما هو على نية التأخير؛ حيث يبقى على حكمه الذي كان عليه قبل التقديم. ويرى الخليل أن تقديم الخبر في قولنا: (قائم زيد) يبقى خبرا كما في تقديم المفعول على الفاعل. هذا هو مراد الخليل، وبدون مراعاة ذلك يصبح الكلام قبيحا ؛ لأنه يؤدي إما إلى لبس كما في تقديم المفعول، حيث يصبح فاعلا. أو يؤدي إلى المحال كما في تقديم الخبر؛ حيث يخبر عن النكرة بالمعرفة »(٦٥)

ونخلص من ذلك إلى أن ثمة أقساما للتقديم والتأخير بحسب الجهة التي ينظر منها. فتارة يقسمون التقديم إلى وجهين، وذلك باعتبار معنى الكلام. وتارة يقسمونه إلى نمطين، وذلك بمراعاة المرتبة النحوية للمقدم، ونية المتكلم في إبقاء المقدم على حكمه من حيث التأخير، أو تحويله عنه. وتارة يقسمونه من حيث التقدم على العامل وعكسه، وقد يقسم غير ذلك ؛ فمن ثم تظهر لدينا الصور والأنماط التالية :

أولا : صور التقديم من حيث المعنى :

يقسم الطبري صور التقديم والتأخير إلى :

مقدم أصالة، ومقدم بمعنى المؤخر:

وقد ذكر النوع الثاني وهو المقدم بمعنى المؤخر. وهو اللفظ يكون مقدّما لفظا وحكما، ولكنه من جهة المعنى في معنى المؤخر، ويتضح ذلك من خلال كلام الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥)

قال أبو جعفر: وقد ظنّ بعض أهل الغفلة أنّ ذلك من المقدّم الذي معناه التأخيرُ،(٢٦) كما قال امرؤ القيس:

وَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشَةٍ... كَفَانِي. ولم أَطْلُبْ. قَلِيلٌ مِن المَالِ (٢٧)

يريد بذلك: كفاني قليلٌ من المال ولم أطلب كثيرًا، وذلك -من معنى التقديم والتأخير، ومن مشابهة بيت امرئ القيس بمعزل، من أجل أنّه قد يكفيه القليلُ من المال ويطلُب الكثيرَ، فليس وُجودُ ما يكفيه منه بموجب له تركَ طلب الكثير، فيكونَ نظيرَ العبادة التي بوجُودها وجود المعونة عليها. وبوجود المعونة عليها وُجُودها، فيكونَ ذكرُ أحدهما دالا على الآخر. فيعتدلَ في صحة الكلام تقديمُ ما قُدِّم منهما قبلَ صاحبه، أن يكونَ موضوعًا في درجته ومرتَّبًا في مرتبته."(٢٨)

نلاحظ أن نوع التقديم الذي يناقشه الطبري – هنا – في تقديم العبادة على الاستعانة ليس متعلقا بالرتبة النحوية، وإنما هو أمر متعلق بالمعنى المراد تقريره.

ومن ذلك أيضا تقديم المغفرة على العذاب أو العكس في قوله تعالى: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ الآية(٢٩). حيث قدم المغفرة، وفي سورة المائدة ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾(٣٠) قدم العذاب.

قال ابن جماعة: جوابه: أن آية البقرة وغيرها جاءت ترغيبا في المسارعة إلى طلب المغفرة، وإشارة إلى سعة مغفرته ورحمته، وآية المائدة جاءت عقب ذكر السارق والسارقة. فناسب ذكر العذاب: لأنه لهم في الدنيا والآخرة.(٣١)

فهذا ونحوه مما سبق لا تعلق لنا به، من جهة أن التقديم والتأخير فيه لا يرجع لتقديم رتبة نحوية على غيرها، وإنما هو راجع إلى المعنى وحده : فمن الجائز -في قواعد اللغة- أن تقدم العبادة أو أن تقدم الاستعانة؛ ومن الجائز كذلك تقديم المغفرة أو العذاب بحسب ما يتطلبه الغرض والمقام، وتعيين تقديم أحدهما إنما هو أمر يرجع إلى المعنى لا غير.

ثانيا: تقسيمه بحسب مراعاة المرتبة النحوية للمقدم، ونية المتكلم:

يقسم التقديم والتأخير بمراعاة المرتبة النحوية للمقدم، ونية المتكلم في إبقاء المقدم على حكمه من حيث التأخير، أو تحويله عنه إلى قسمين:

١-تقديم على نية التأخير: وذلك مثل قولك: (ضربَ عمراً زيدٌ) فالمفعول به مقدم ولكنه باق على حكمه وهو التأخر عن فاعله؛ فلذا يقال فيه: مقدم على نية التأخير.

ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ (البقرة: ١٢٤)

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٣٢] (المائدة: ٦٩)

٢- تقديم لا على نية التأخير: و ذلك مثل قولك: (زيد ضربته) بدلا من قولك: (ضربت زيدا) حيث أردت بتقديمه تحويله من موقع المفعولية إلى موقع الابتداء.

ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة: ١٢٠) مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٧٣) [٣٣]

ثالثا: صور التقديم من حيث التقدم على العامل، أو غير العامل:

يقسم البعض التقديم والتأخير من حيث التقدم على العامل وغيره إلى قسمين:

الأول: تقديم اللفظ على عامله: نحو: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٢)؛ حيث قدم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص.

الثاني: تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٧٣) وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (المائدة: ٣) [٣٤]

وقد تعرض بعض الباحثين كذلك لدراسة التقديم والتأخير في القرآن ولكن حسبما اتفق له من المباحث دون خطة شاملة؛ كأن يدرس:

١- التقديم والتأخير في الفاعل. [٣٥]

٢- التقديم والتأخير في المفردات. [٣٦]

٣- التقديم والتأخير في الضمائر. [٣٧]

ومن الباحثين من تعرض لدراسة بعض الآيات الواردة في التقديم والتأخير بغير خطة مبوبة لذلك على أبواب النحو. [٣٨]

ويمكننا أن نقسم متشابه التقديم والتأخير في القرآن إلى أقسام وأنماط أخر، بالنظر إلى صور وأنماط اختلاف التركيب النحوي بالتقديم والتأخير .

أنماط التشابه في التقديم والتأخير:

بعد الاطلاع على الدراسات السابقة حاول البحث تقديم خطة تقرب معظم أنواع المتشابه بالتقديم والتأخير، فكانت كالتالي :

أولا: متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر .

وله صور:

أ- متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الاسمي .

ب- متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الفعلي .

ثانيا: تقديم الفضلة على أحد ركني الجملة.

وله صور منها:

(أ) تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية .

(ب)تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية .

(ج) تقدم المعمول على العامل .

ثالثا: تقديم بعض الفضلات على بعض .

وله صور، منها:

١. تقديم الظرف على المفعول .
٢. تقديم ضمير التوكيد والفصل على المفعول الثاني وعكسه .
٣. تقديم الصفة أو الحال على الظرف وعكسه .
٤. تقديم أحد متعلقات الفعل على غيره .
٥. تقديم بعض جمل الحال على بعض.
٦. تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض .
٧. تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض.
٨. تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض .

النمط الأول: متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر:

الأصل المعهود – عند أغلب النحاة – في تركيب الجملة الاسمية تقدم المبتدأ على الخبر ؛ لأن المبتدأ هو المحكوم عليه والخبر هو الحكم ؛ ومن ثم فلا بد أن يسبق الحكم وجود المحكوم عليه. وهذا ما يقرره الرضي ، حيث يقول: "إنما كان أصل المبتدأ التقديم لأنه محكوم عليه ، ولا بدّ من وجوده قبل الحكم، فقصد في اللفظ أن يكون ذكره قبل ذكر الحكم عليه "(٦١)

وهذا ما يقرره الدَّماميني كذلك .(٦٢)

ويقرره أبو حيان حيث يقول: " الأصل: تأخير الخبر. ويجب هذا الأصل إذا كانا معرفتين، نحو: زيد أخوك. أو كانا نكرتين نحو: (أفضل منك أفضل منّي) .."(٦٣)

ويقول السيوطي: "الأصل: تقديم المبتدأ وتأخير الخبر ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلا بد من تقديمه ليتحقق."(٦٤)

من جهة أخرى فإن الخبر مبين لحال المبتدأ ؛ ومن ثم وجب تأخر البيان عن المبيَّن. يقول الأهدل: "الأصل فيه – أي الخبر – أن يكون مؤخرا عن المبتدأ ؛ لأنه إنما يؤتى به لبيان حال المبتدأ. والدال على حال الذات متأخر عنها طبعا."(٦٥)

كذلك فإن الخبر وصف للمبتدأ من حيث المعنى، ومعلوم أن الوصف يتأخر عن الموصوف، قال ابن عقيل :"الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر. وذلك لأن الخبر وصف في المعنى للمبتدأ. فاستحق التأخير كالوصف."(٦٦)

وقد خالف البعض في هذا الأصل فيما حكاه الصبان (٦٧)عن اللقاني، وتابعه في ذلك من المحدثين أ/ عباس حسن (٦٨)، ود/عودة خليل أبو عودة (٦٩): حيث يرون أن الأصل جواز التقديم والتأخير. وما ذكرناه آنفا من أن الأصل تأخر الخبر هو الأصح ؛ لما سبق ذكره من الأدلّة التي استدل بها جمهور النُّحاة.

وإذا كان الأصل تقدُّم المبتدأ وتأخر الخبر فسوف نورد هنا أمثلة للمتشابه مما وافق الأصل وما خالفه.

(أ) متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الاسمي.

ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ مع قوله ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٢٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٧٣).

المبتدأ والخبر في هاتين الآيتين كلاهما معرفان لإفادة الحصر، وقدّم هذا في موضع، والآخر في موضع، نحو قولك: (زيد الرجل)، أو (الرجل زيد).

ففي الموضع الأول: ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ جاء بجملة اسمية معرفة الطرفين، وأكد الجملة بأن وبالفصل الذي قبل، فدل على الاختصاص والحصر، وجاء الهدى معرّفاً بالألف واللام، وهو مما قيل: إن ذلك يدل على الحصر، فإذا قلت: زيد العالم، فكأنه قيل: هو المخصوص بالعلم والمحصور فيه ذلك." (٣٨)

ومثل ذلك يقال في الجملة الثانية التي جاءت على النسق نفسه مع التقديم والتأخير.

والتقديم والتأخير هنا جائز بين المبتدأ والخبر، فيقدم هذا أو ذاك باعتبار السياق والمقام، وهذا ما اهتم ببيانه المصنفون في كتب المتشابه.

فذهب الكرماني إلى أن الهدى في (آل عمران :٧٣) هو الدين، وقد تقدم في قوله: ﴿ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾، وهدى الله: الإسلام :فكأنه قال بعد قولهم: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ كما سبق في أول السورة.

والذي في البقرة معناه القبلة؛ لأن الآية نزلت في تحويل القبلة، وتقديره: قل إن قبلة الله هي الكعبة. (٣٩)

ولم يتعرض لبيان هذه العلة أحد ممن صنفوا في المتشابه – فيما أعلم – فلم يتعرض لها على سبيل المثال كلٌّ من الإسكافي والغرناطي، ولم يزد ابن جماعة وكذلك الأنصاري على ما ذكره الكرماني شيئا ؛ بل اكتفى الأول بتلخيص عبارته في ذلك. (٤٠)

والذي ذكره الكرماني – وتبعه فيه ابن جماعة وغيره – يصلح أن يكون تفسيرا لكلمة الهدى في الموضعين ؛ لكن ليس فيه بيان لعلّة التقديم والتأخير فيهما.

ولكننا إذا تأملنا كلام الزمخشري في آية البقرة أمكننا أن نستشف منه تلك العلّة، يقول الزمخشري: «كأنهم قالوا: لن ترضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا. إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ من دخولهم في الإسلام، فحكى الله عزّ وجلّ كلامهم. ولذلك قال: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ على طريقة إجابتهم عن قولهم، يعني أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق ،وهو الذي يصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى . ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة»[٤١]

ومعنى ذلك أنه يرى أن الآية قد قصرت الهدى على هدى الله ؛ فناسب ذلك تقديم هدى الله مع الإتيان بضمير الفصل (هو) لإفادة القصر ؛ فيكون المعنى: إن هدى الله لا غيره هو الجدير باسم الهدى الحقيقي الكامل الذي لا ضلالة فيه .

وقد ساعد على ذلك اشتمال (الهدى) على (آل) الجنسية المفيدة للحقيقة والماهية والكمال، والسياق يؤيد ذلك ؛ وذلك أن أهل الكتاب قد أعلنوا للرسول ﷺ أنهم لا يرضون عنه حتى يتبع ملتهم؛ كأنهم يزعمون بذلك أنهم على الهدى الكامل، ويدعون الرسول ﷺ لاتباع هذا الهدى الذي يزعمونه. فكذّبهم الله تعالى، وبين لهم أن الهدى الحقيقي هو ما أنزل على محمد ﷺ لخلوه من التحريف والتغيير.

ويجوز أن يكون المراد بهُدى الله: الذي أنزله إليَّ هو الهدى . يعني أن القرآن هو الهدى ؛ إبطالاً لغرورهم بأنَّ ما هم عليه من الملة هو الهدى وأن ما خالفه ضلال . والمعنى أن القرآن هو الهدى وما أنتم عليه ليس من الهدى ؛ لأن أكثره من الباطل ."[٤٢]

«فإضافة الهدى إلى الله تشريف، والقصر إضافي؛ وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شيء حرفوه ووضعوه، فيكون القصر إما حقيقياً ادعائياً بأن يراد هو الهدى الكامل في الهداية، فهدى غيره من الكتب السماوية بالنسبة إلى هدى القرآن كلا هدى؛ لأن هدى القرآن أعم وأكمل... وإما قصراً إضافياً، أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات ...،وقوله: ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الضمير ضمير فصل. والتعريف في الهدى تعريف الجنس الدال على الاستغراق، ففيه طريقان من طرق الحصر، هما: ضمير الفصل، وتعريف الجزأين، وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به»[٤٣]

لأجل ذلك كلّه جاءت الآية على هذا النحو من تقديم ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ وتعريف الجزأين، والفصل بالضمير؛ لإفادة القصر الإضافي -قصر الهدى الحقيقي الكامل على هدى الله تعالى وحده، وهو دين الإسلام وشريعته بما يشتمل عليه من تشريع القبلة وسائر الشرائع كذلك، ولا حاجة لتخصيص معنى هدى الله هنا بالقبلة حسب ما ذهب إليه الكرماني ومن تبعه في ذلك؛ بل الأولى ترك المعنى على إطلاقه شاملا الهداية كلّها للحقّ كلّه الذي لا يخرج عما أنزل على محمد ﷺ من الدين الحق، وهو الإسلام – خلافا لما ذهب إليه اليهود والنصارى من أنّ ملّتهم هي الهدى الذي يجب اتباعه : ولذا فهم لا يرضون عن النبي ﷺ حتى يتبع ملتهم اتباعا كاملا – وليس بمجرد موافقتهم في بعض الأمور كأمر القبلة مثلا -ومن ثم تبجحوا بأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، زاعمين بذلك أن ملتهم ودينهم هي وحدها الحق ؛ فكذبهم الله تعالى في ذلك وخالف كلامهم ببيان أن هدى الله وحده – الذي هو الإسلام هو الهدى الكامل على الحقيقة.

أما الموضع الثاني في - سورة آل عمران ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ فهو عكس سابقه ؛ حيث قصر هدى الله على الهدى الكامل ؛ أي إن هدى الله لا يكون إلا كاملا، وقد أفاد ذلك تعريف الهدى بـ(أل) الجنسية المفيدة للحقيقة والماهية، وفي ذلك تعريض بنقص دين أهل الكتاب الذين ذكر القرآن تحريفهم لكتبهم.

(ب)متشابه التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر الفعلي.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ (٤٥) مع قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾.(٤٦)

والتشابه بين الآيتين واضح، أما وجه الاختلاف فيظهر في صياغة الجملة الأولى في صورة الجملة الاسمية :(مبتدأ + مضاف إليه + خبر جملة فعلية فعلها مضارع (يسعى) وفاعله ضمير مستتر يعود على نورهم + بقية الجملة المتفقة في الآيتين .

أما الجملة الثانية فقد صيغت في صورة الجملة الفعلية :(فعل مضارع + فاعل + مضاف إليه+ بقية الجملة المتفقة في الآيتين .

ومعلوم أن الجملة الاسمية تفيد الثبوت ،أما الجملة الفعلية فتفيد التجدد والحدوث مرة بعد مرة.

فلما كانت الجملة الفعلية في سياق بشارة المؤمنين ناسب ذلك التجدد الذي تحسن به

البشارة، ولما كانت الجملة الاسمية في سياق معية المؤمنين لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ناسب ذلك تقرير الثبوت الذي تتم به تلك المعية.[٤٧]

النمط الثاني: تقديم الفضلة على أحد ركني الجملة .

ومن صوره:

١ - تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية .

٢ - تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية.

وسنعرض هنا بعض النماذج التطبيقية لكلٍ مما وردت أمثلته في المتشابه اللفظي:

الصورة الأولى: تقدم الفضلة على ركن الجملة الفعلية:

من المتقرر كالأصل أن يؤتى بركني الجملة أولا ثم ما يتبعهما من فضلات أو متعلقات، كالظرف والجار والمجرور والحال ونحو ذلك ،سواء كان الركنان هما المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل، ولكن قد يتقدم ما هو دون الركنين عليهما أو على أحدهما لغرض بلاغيٍّ، يتفرع في الغالب على غرض أساسيٍّ هو بيان الاهتمام بالمقدَّم.

وللتقديم والتأخير في ذلك شروط وضوابط ذكرها النحاة ، فمثلا : "إذا كان العامل في الحال فعل صلح تقديمها وتأخيرها ؛ لتصرف العامل فيها ، فقلت: جاء زيدٌ راكباً، وراكباً جاء زيدٌ، وجاء راكباً زيدٌ . قال الله عز وجل: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) . وكذلك قائماً لقيت زيداً، وقائماً أعطيت زيداً درهماً، وذاهباً إليك رأيت زيداً.

وإن كان العامل غير فعل لم تكن الحال إلا بعده، وذلك قولك: زيدٌ في الدار قائماً، وفي الدار قائماً زيدٌ، وفي الدار زيدٌ قائماً. إذا كان قائماً بعد قولك: "في الدار" انتصب. ولا يصلح: قائماً في الدار زيدٌ، ولا زيدٌ قائماً في الدار، ولا قائماً زيدٌ في الدار، لما أخرت العامل، ولم يكن فعلاً لم يتصرف الفعل، فينصب ما قبله، وهذا إذا جعلت في الدار خبراً فقلت: زيدٌ في الدار، وفي الدار زيدٌ، فاستغنى زيد بخبره قلت: قائماً ونحوه، لتدل على أية حال استقر.

فإن جعلت قائماً هو الخبر رفعته، وكان قولك: في الدار، فضلةً مستغنىً عنها؛ لأنك إنما قلت: زيدٌ قائمٌ، فاستغنى زيد بخبره، ثم خبرت أين محل قيامه؟ فقلت في الدار، ونحوه. وكل ما كان في الابتداء من هذا فكذلك مجراه في باب إن وأخواتها، وظننت وأخواتها، وكان وأخواتها."[٤٨]

ومما ورد من ذلك في كتاب الله: قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ (القصص:٢٠) مع قوله تعالى:

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ (يس: ٢٠)

قال عز من قائل في سورة القصص في قصة موسى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ فذكر المجرور بعد الفاعل وهو موضعه. وقال في يس في قصة رسل عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ فقدم لما كان أهم.

ويعلل السكاكي ذلك بأنه سبحانه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل، وأنهم أصروا على تكذيبهم وانهمكوا في غوايتهم مستمرين على باطلهم. فكان مظنة أن يلعن السامع على مجرى العادة تلك القرية، قائلا: ما أنكدها تربة، وما أسوأها منبتا، ويبقى مجيلا في فكره أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك، أم كان هناك قطر دان أو قاص منبت خير؟ - منتظرا لمساق الحديث: هل يلم بذكره فكان لهذا العارض مهمًّا.. بخلاف قصة موسى.[٩]

وهذه التفاتة جيدة من السكاكي لتعليل ما جاء خارجا على الأصل، وهو تقدم الفاعل؛ حيث رأى أن اشتمال الحديث هنا على ذكر تلك القرية الخبيثة أدعى للتتميم بذكر حال غيرها من التي امتثل فيها أحد فقرائها وضعفائها وسارع بإجابة الرسل.

وقد أجاب الإسكافي عن سبب هذا التقديم والتأخير برأي آخر، مؤداه أن الفاعل في الموضعين لما كان نكرة فالمعنى: جاء جاءٍ، وقد دل الفعل على جاءٍ، ولا يكون الجائي من أقصى المدينة في الأعم الأغلب إلا رجلا. وكان الذي يفيد المخاطب أن يعلم أنه جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية، وهو لم يحضر موضع الدعوة، ومشهد المعجزة، فقدم ما يكون تبكيت القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر، فقال: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ ﴾ ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم.

وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد: جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورا لمكانه، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم، وهو الفاعل؛ إذ لم يكن هنا تبكيت القوم بكونه من أقصى المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة.[١٠]

وعلّل الإسكافي تقدم الجار والمجرور في سورة يس بأهمية إبراز البعد المكاني، ولعله يلمح إلى

بيان أثر هذا البعد في إظهار المفارقة بين من يسعى لإجابة الرسل من أقصى المدينة، وبين من أعرضوا عن دعوة الرسل الذين أتوهم في ديارهم ومحالّهم دون كلفة عليهم ولا عناء .ونلاحظ أن الإسكافي قد علّل هنا للآية التي تقدّم فيها الجار والمجرور على الفاعل الذي هو ركن الجملة، أي اكتفى بالتعليل لما خرج عن الأصل ،ولم ير داعيا لتعليل ما وافق الأصل، وهو آية القصص التي تقدم فيها الفاعل .

أما ابن جماعة فقد ألمح إلى فائدة أخرى في تقديم الجار والمجرور -من أقصى المدينة- وهي انتفاء التواطؤ بينه وبين الرسل. أما الآية الأخرى فلم يعلل لتقدم الفاعل فيها باعتباره جاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة" (٤١)

ووافق الكرماني الإسكافي في تعليله لآية يس بما لا يخرج عن مضمون كلامه ، ثم اجتهد لتعليل التقديم الموافق للأصل معوّلا على مراعاة النظير السابق في السياق فقال :" خصت هذه السورة -القصص-بالتقديم لقوله قبله:﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ ثم قال ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ ، وخصت سورة يس بقوله: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا ." (٤٢)

والحق أن التعليل بموافقة الأصل حسب ما ذهب إليه الكرماني وغيره غير كاف ; وذلك لاتساع الاختيار بين موافقته أو الخروج عنه، وذلك أن كلا الأمرين - موافقة الأصل، والخروج عنه - بحاجة إلى التعليل من ناحية المعنى.

كما أن التعليل - الذي ذهب إليه الكرماني بمراعاة النظير بأن يقال: إنه قال :(رجل) ليوافق (رجلين) غير مقبول ; وذلك لأنه يصلح أن يكون بيانا لعلة تكرر اللفظ، لا بيانا لعلة التقديم ; وذلك لأن الآية الأخرى - آية يس - قد ورد فيها لفظ (رجل) مؤخرا ولم يسبقه في السياق لفظ (رجل) ولا (رجلين).

ومن ثم فلا بد من البحث عن علّة أخرى غير ما ذكرا أقصد الإسكافي والكرماني- ولعل تلك العلة هي ما ألمح إليها كلام ابن كثير، وإن كان لم يشبعها بالتعليل والإيضاح الكافي؛ حيث قال: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّة لأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيق فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَب مِنْ طَرِيق الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ يَا مُوسَى ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أَيْ يَتَشَاوَرُونَ فِيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أَيْ مِنْ الْبَلَد ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (٤٣).

والحق ما ألمح إليه كلام ابن كثير في هذا الموضع الذي جاء على الأصل من أن علّة التقديم

ترجع فضلا عن موافقة الأصل - إلى إبراز صفة الرجولية في هذا الرجل بما أبرز من شجاعة ظاهرة، كما أن ما ألمح إليه السكاكي آنفا تعليل جيد لتقديم ذكر المكان وهو المتعلق على الفعل.

الصورة الثانية: تقدم الفضلة على ركن الجملة الاسمية.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مع قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ في الآيات التالية: حيث تقدم الجار والمجرور - متعلق الخبر (خبير) - على ركن الجملة - الخبر - في بعض هذه الآيات، وجاء على الأصل في بعضها الآخر:

فورد قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في المواضع التالية:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٣)

مع قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٦)

مع قوله تعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المجادلة: ١٣)

مع قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ (المنافقون: ١١)

وورد قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ في المواضع التالية:

في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٤)

وقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٧١)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (آل عمران:١٨٠)

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (الحديد :١٠)

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة :٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة :١١)

وقوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (التغابن:٨)

لا نكاد نجد في كتب المتشابه والتفسير في هذه الآيات ما يسعف في جوابها ، ويكشف عن سبب اختلاف التقديم والتأخير بين جميع هذه الآيات.

لكننا إذا تأملنا جميع المواضع التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

نلاحظ أنها جميعا تتعلق بحدث ماض، أو عمل كان منهم فيه مخالفة فيما مضى ، أو اعوجاج عن المنهج ، يرجع إلى داء باطن وعلّة دفينة في النفوس ؛ ولذا يأتي مع هذه المواضع جميعها تقديم الخبر (خبير) الذي يدلُّ على سابق علم الله تعالى، وخبرته بما يكنه العباد في نفوسهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم من الجبلة المنطوية على الشح والبخل والأثرة ، ونحو ذلك من العلل الدفينة.

فـ «(الخبير) بمعنى: العليم ، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيراً». قال الألوسي :﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ظاهراً وباطناً وقال غيره :«وجملة

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تذييل، أي: الله عليم بأعمالكم ومختلف نياتكم»[٥١]

أما القسم الثاني من الآيات – وهي التي ذُيّلت بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فهي كثيرة رغم كونها خارجة على الأصل؛ حيث تقدم فيها المتعلق ﴿ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ على الركن الخبر ﴿ خَبِيرٌ ﴾.

وإذا تأملنا هذه المواضع جميعها لاحظنا أنها جميعا تتعلّق بأعمال مطلوبة من العباد قد كلّفوا بها، لا يقع عملهم بها إلا بعد زمن التكليف، ونزول الخطاب، وقد يقع منهم مخالفة أو خروج عن منهج الله تعالى لأدواء النفوس وأمراضها، وتظهر النكتة في تقديم الجار والمجرور (بما تعملون) في هذه المواضع – بما فيه من دلالة الفعل المضارع الذي يدل إما على الحال أو الاستقبال – وهي أن العمل هو موضع الاهتمام لكونه يقع مستقبلا ؛ ومن ثم فهو مترقب، وهو محل نظر ربّ العالمين ورقابته واطلاعه ؛ فمن ثم قدم ليحصل للمخاطبين اعتناؤهم به، ومراقبتهم لله في أدائه، لا سيّما إذا تعلّق الأمر بخبرة الله تعالى، وعميق علمه ببواطن النفوس، وما تنويه من الالتزام بشرع الله تعالى في تلك الأعمال أو مخالفتها له.

ونستطيع أن نلمح اطراد هذا السبب في جميع تلك المواضع – وهو كونها أعمال وقع التكليف بها فلا تقع إلا بعد زمن الخطاب .

النمط الثالث: تقديم بعض الفضلات على بعض:

وله صور ، منها:

١- تقديم الظرف على المفعول:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ (النحل:١٤) مع قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ (فاطر:١٢)

جاءت آية النحل بتقديم المفعول الثاني على الظرف، وهو الأصل؛ لأن المفعول الثاني هنا أصله الخبر فحقُّه التقديم، وعدل عن ذلك في فاطر ، فاستحق ذلك بيان المناسبة في كلٍّ.[٥٢]

«فقيل في وجه: لأنه علق ﴿ فِيهِ ﴾ هنا بترى وثمت بمواخر، ولا يحسم مادة السؤال.»[٥٣]

والراجح ماذهب إليه الألوسي من أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها[٥٤] وتعقيب الايات بقوله سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣-٤) فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة، وهو مخر الفلك للماء ، بخلاف ما هنا، فإنه إنما سيق

استطراداً أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً، فقدم ﴿ فِيهِ ﴾ إيذاناً بأنه ليس المقصود بالذات.[٦٠]

وقد ذكر ابن جماعة وجهاً قوياً من أوجه المناسبة في كلٍّ ، بما يوافق كلام الألوسي في الموضع الأول، لكنه زاد عليه بتوجيه حسن للموضع الثاني ، فقال ما مؤداه: أن آية النحل سيقت لتعداد النعم على الخلق ، بدليل تقديم قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾.

وآية فاطر: سيقت لبيان القدرة والحكمة ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية ...وقدم (مَوَاخِرَ) على (فيه) لأنه امتن عليهم بتسخير البحر، فناسب تقديم (مَوَاخِرَ) أي: شاقة للماء وأيضا ليلي المفعول الثاني المفعول الأول لـ (ترى) فإنه أولى من تقديم الظرف.[٦١]

قلت: وما ذكره ابن جماعة قوي متّجه ويؤيده سياق الآيات.[٦٢]

ولتقديم الظرف على المفعول نظائر في القرآن ، فقد ذكر الله جل وعلا على لسان آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون أنها قالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ (التحريم: من الآية١١)

فالترتيب النحوي المعهود هو :رب ابن لي بيتاً عندك، فقدم الظرف على المفعول به على خلاف الترتيب النحوي لغرض ؛ وهي أنها اختارت جوار الله قبل أن تختار الدار ، وقد بين في أكثر من موضع أن هذا من دلالة شوقها إلى ربها جل وعلا ، وأدبها في مخاطبة الرب تبارك وتعالى .

٢- تقديم ضمير التوكيد والفصل على المفعول الثاني وعكسه :

قال تعالى – في سورة المؤمنون: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

وقال في سورة النمل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

حيث تقدم توكيد المضمر المرفوع بقوله (نحن) وتأخير المفعول، وهو (هذا) في الآية الأولى، وعكس ذلك في الآية الثانية.

وقد أرجع الإسكافي ذلك إلى مراعاة النظائر في الأفعال ، ففي الآية الأولى حكاية تظاهرت فيها أفعال أسندت إلى فاعليها متصلة بها، وهي: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

فهذان فعلان تعلّق بهما هذا المحكي، وكل واحد منهما جاء بعده فاعله مواصلا له غير

منفصل عنه، ثم بعده: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا ﴾ فكل هذه الأفعال قُصد بها حكاية ما جاء بعدها، فلمّا كان: (لقد وعدنا) وجب في البقاء على الأفعال المتقدمة أن يتمّم حكم الفاعل، وهو توكيده، والعطف عليه. فقدّم (نحن وآباؤنا) على المفعول الثاني، وهو (هذا) لذلك، ولأن الأصل إذا أجرى عليه الشيء أولى من غيره.

وأما الآية الثانية من سورة النمل فإن الذي تقدمها: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ ﴾ فأخّر المعطوف على اسم (كان) الذي هو كالفاعل لها، وهو قوله: (وآباؤنا) عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها، وهو قوله: (ترابا) فصار ما هو كالمفعول مقدّما على ما هو معطوف على الفاعل، فاقتضى البناء عليه تقديم المفعول ثم العطف على الفاعل المضمر فجاء: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا ﴾[62]

وقد قيل في ذلك أقوال أقواها ما ذكره الزركشي وسبقه السكاكي إليه ، حيث يرى في سورة النمل ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا ﴾ فقدم لكونه منها أهم يدلك على ذلك أن الذي قبل هذه الآية ﴿ أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ﴾ والذي قبل الأولى(أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما ﴾ فالجهة المنظور فيها هناك هي كون أنفسهم ترابا وعظاما، والجهة المنظور فيها ههنا هي كون أنفسهم وكون آبائهم ترابا لأجزاء هناك من بناهم على صورة نفسه ولا شبهة أنها أدخل عندهم في تبعيد البعث فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد على ذكره فصيره هذا العارض أهم .[63]

٣- تقديم الصفة أو الحال على الظرف وعكسه :

وذلك كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة :٣٥)

وقوله تعالى فيها أيضا: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (البقرة:٥٨)

قال العكبري: «(رغدا) صفة مصدر محذوف: أي أكلا رغدا أي: طيبا هنيئا، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال تقديره: كلا مستطيبين متهنئين. (حيث) ظرف مكان، والعامل فيه كلا، ويجوز أن يكون بدلا من الجنة فيكون (حيث) مفعولا به ؛ لأن الجنة مفعول وليس بظرف»[64]

ونلاحظ أن آية البقرة في الامتنان على آدم وزوجه قدمت ما هو الأهم في القصة: وهو أن الله تعالى قد أباح لآدم وزوجه رزقا رغدا واسعا غير محصور، ولم يحرم عليهما سوى شجرة واحدة ، فخالفا ووقعا في معصية الخالق، وطاعة عدوّهما؛ فالمقصود إذا هو إبراز المفارقة بين

توسعة الله تعالى على آدم وزوجه، وتضييقهما على أنفسهما بإيثار شجرة واحدة هي تلك الشجرة التي نهيا عنها دون ما أبيح لهما من الرزق الواسع الرغد.

قال الرازي : «فإنه أطلق له في جميع مواضع الجنة بقوله: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ (البقرة: ٣٥) ثم منع من شجرة واحدة ، فلم يملك نفسه حتى وقع في الشر»[٣٦]

أما في الآية التي امتن الله فيها على بني إسرائيل بإنعامه عليهم بتمكينهم من دخول الأرض المقدسة التي أبوا أن يدخلوها فاتحين منتصرين، وقد كتب الله لهم دخولها ؛ فحرمها عليهم أربعين سنة ، ثم أباحها لهم، وقد كانت بأيدي عدوهم فمكنهم منها ؛ لذا كان المقدم والأهم في الامتنان هو الامتنان عليهم بإباحة القرية لهم بكاملها ؛ بحيث يكون لهم وحدهم فيها مطلق التصرف، حيث شاءوا لا سلطان عليهم من أحد في ذلك، مع ما أبيح لهم فيها من الرزق الواسع الرغد، لكن المقدم والمقصود الأعظم، والمنة العظمى عليهم هي في إطلاق أيديهم في تلك القرية، ونيل حريتهم فيها بعدما كان مضيقا عليهم من أعدائهم .قال الألوسي : «﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ أي واسعاً هنيئاً ، ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين، وفي الكلام إشارة إلى حلّ جميع مواضعها لهم، أو الإذن حاصلها إلى أي موضع شاءوا مع دلالة (رغداً) على أنهم مرخصون بالأكل منها واسعاً وليس عليهم القناعة لسد الجوعة»[٣٧]

٤- تقديم أحد متعلقات الفعل على غيره :

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٧٣) مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (المائدة: ٣)

وقد ورد ذلك في عدة آيات في سياقات متعددة :

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٣)

مع قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣)

مع قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: ١١٨)

مع قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(الأنعام :١٤٥)

وقد حاول بعضهم التوفيق بأن تقديم الباء هو الأصل، ولما كانت آية البقرة هي الأسبق «كان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ»[٦٥]

وأرى أن هذا غير مقبول؛ إذ إن سورة البقرة مدنية باتفاق، والنحل والأنعام مكيتان باتفاق كذلك ؛ فكيف تكون البقرة هي الأسبق، أما إذا كان يعني ترتيب السور في المصحف؛ فهذا مناقض لكلامه أن «الموضع الأول أولى بما هو الأصل؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ» فمعنى ذلك أنه لم يعلم ما يقتضيه اللفظ حتى نزلت الآية المتأخرة، وليست الأسبق كما يقول .

أما ابن جماعة فقد كان كلامه أكثر قبولا ، حيث قال :«إن آية البقرة وردت في سياق المأكول وحلّه وحرمته ؛ فكان تقديم الضمير وتعلق الفعل به أهم، وآية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره والأمر بتقواه، وكذلك آية النحل بعد قوله: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾. (النحل: ١١٤) ، وكان تقديم اسمه أهم، وأيضا فإن آية النحل والأنعام نزلتا بمكة : فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم؛ لما يجب من توحيده وإفراده بالتسمية على الذبائح. وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل ويحرم فقدم الأهم، والله أعلم.»[٦٦]

وهذا كلام جيد يؤيده سياق الآيات: فآية البقرة إنما سبقها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ فكان تقديم ما يتعلق بالمأكول وهو (به) أهم .

أما المواضع الأخرى: فآية المائدة وردت بعد الأمر بتعظيم شعائر الله مما يقتضي توحيده وعدم الإشراك به في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ

ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة: ١-٢)

وكذلك آية النحل كما بين. وآية الأنعام سبقها قصة إشراك المشركين بالله تعالى غيره في ذبائحهم ونسكهم، وغير ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢١)

٥ - تقديم بعض جمل الحال على بعض.

قد تتشابه الآيتان في اشتمالهما على أكثر من حال، مع تقارب ألفاظهما؛ ولكن يكون بين الآيتين تقديم وتأخير لأحد الحالين على الأخرى تختلف فيه الآيتان، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم: ٨)

وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ٤٠)

جملة وقد «بلغني» حالية، وجملة «وامرأتي عاقر» معطوفة على الحالية في محل نصب.[٧٠]

أورد الغرناطي الإشكال في اختلاف سياق الآيتين رغم اتحاد معناهما، ثم أورد جوابه عن ذلك الذي مؤداه أن المعنى وإن كان في السورتين واحدا وفي قضية واحدة :فإن مقاطع آي وسورة مريم وفواصلها استدعت ما يجري على حكمها ويناسبها من لدن قوله تعالى في افتتاح السورة: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ إلى قوله في قصة عيسى عليه السلام: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ لم تخرج فاصلة منها عن هذا المقطع ولا عدل بها إلى غيره، ثم عادت إلى ذلك من لدن قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ إلى آخر السورة. فاقتضت مناسبة آي هذه السورة ورود قصة زكريا عليه السلام على ما تقدم ،ولم يكن غير ذلك ليناسب .أما آية آل عمران فلم يتقيد ما قبلها من الآي وما بعدها بمقطع مخصوص، فجرت هي على مثل ذلك والله أعلم.[٧١]

فالغرناطي عزى الاختلاف بين الآيتين بالتقديم والتأخير إلى مراعاة الفاصلة، لا غير. أما الكرماني فقد زاد على ذلك بمراعاة السياق في أحد الموضعين - وهو سورة مريم - بالإضافة إلى مراعاة الفاصلة، وهو أجود - بلا شك من الغرناطي في ذلك.

قال الكرماني: «قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٠) قدم في هذه السورة ذكر الكبر وأخر ذكر المرأة، وقال في سورة مريم ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ فقدم ذكر المرأة؛ لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبر في قوله: ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ وتأخر ذكر المرأة في قوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ ثم أعاد ذكرها فأخر ذكر الكبر ليوافق عتيًّا ما بعده من الآيات وهي سويًّا، عشيًّا، وصبيًّا.»[٣٢]

وذهب ابن جماعة إلى نحو ما ذهب إليه الكرماني وعدَّ ذلك: «تفننا في الفصاحة»[٣٣]

أما الشيخ زكريا الأنصاري فهو وإن وافق من سبقه في التعليل لسورة مريم برعاية الفاصلة؛ فإنه قد انفرد عنهم بتعليل التقديم في آل عمران بتقديم ذكر الذكر على الأنثى «لأن الذكر مقدم على الأنثى فقدم كبره هنا وأخر، ثمَّ لتتوافق الفواصل.»[٣٤]

ويمكن أن نعلِّل لاختصاص سورة مريم بتقديم سبب عقم المرأة بما علَّل به الكرماني: وهو أن ذلك كان لسبق تقدم ذكر الكبر في قوله (وهن العظم مني) ويمكن أن نضيف لذلك أن سياق السورة كلها تكريم للمرأة في شخص مريم - عليها السلام - فلذا ناسب تقديم المرأة فيها. أما سورة آل عمران فقد جاءت على الأصل في تقديم الرجال، وسياق السورة هو في اصطفاء النبيين من الرجال؛ حيث بدأ السياق بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣) وهذا التعليل لاختصاص سورة آل عمران بتقديم كبر يعقوب يوافق ما علَّله به الأنصاري من اعتبار تقديم الرجل على المرأة. والله تعالى أعلم.

٦- تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض.

قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾. (البقرة: ٤٨)

وقال: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة: ١٢٣)

نلاحظ هنا تشابه الآيتين في أغلب ألفاظهما مع اختلافهما بالتقديم والتأخير في الجمل التي وقعت نعوتا لذلك اليوم.

وذلك أن (يوما) مفعول به، وجملة «لا تجزي نفس» نعت لـ «يوم»، والأصل: لا تجزي فيه، ثم

حُذف. «شيئا» نائب مفعول مطلق، أي: لا تجزي جزاء قليلا ولا كثيرا. جملة «ولا هم ينصرون» معطوفة على جملة «ولا يؤخذ منها عدل» في محل نصب.[٢٥]

وهاتان الآيتان قد وقف عندهما كثيرٌ من المفسرين ،وممن صنفوا في متشابه القرآن، متسائلين عن سرِّ الاختلاف بينهما بالتقديم والتأخير ؛ حيث قدم جملة النعت النافية لقبول الشفاعة في الآية الأولى على النافية لقبول العدل، وعكس ذلك في الآية الثانية .

فذكر الكرماني أنه سبحانه إنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله. وأخرها في الآية الأخرى ؛لأن التقدير في الآيتين معا لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة ؛ لأن النفع بعد القبول، وقدّم العدل في الآية الأخرى ؛ ليكون لفظ القبول مقدما فيها .[٢٦]

ثم عاد للكلام عنهما في الموضع الثاني . فقال :"هذه الآية والتي قبلها متكررتان ، وإنما كررت لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا ؛لأن كل واحدة وقعت في غير وقت الأخرى . والمعصية الأولى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٤) والثانية:﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾. (البقرة: ١٢٠)".[٢٧]

والحق أن كلام الكرماني في الموضعين ليس كلُّه مقنعا ؛ فلئن قبلنا كلامه في أنه: «إنما قدم الشفاعة قطعا لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله» - أقول إن قبلنا ذلك فإنا لا نقبل تعليله لتأخير الشفاعة في الآية الأخرى .

فقوله: «قدم العدل في الآية الأخرى؛ ليكون لفظ القبول مقدما فيها» غير مقبول؛ لأنه لا تلازم بين ذكر العدل والقبول . بدليل أنه جاء في الآية الأخرى ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾؛ فضلا عن ذلك إن قلنا :(إن العدل والقبول متلازمان) فقبول العدل لا يلزم منه قبول الشفاعة - حيث يرى أنه قدم قبول العدل لأن الشفاعة لا بد أن يسبقها القبول.

وكذلك إجابته في الموضع الثاني غير مقنعة ؛إذ عزا تكرر الآيتين لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا؛ وهذا كلام غير مقبول؛ لأن جرائم بني إسرائيل المسرودة في سورة البقرة بين هاتين الآيتين عديدة يصعب حصرها من تجرؤهم على نبيهم، واستطالتهم عليه، وسوء أدبهم معه، وتلكؤهم في تنفيذ أوامره، والاستجابة لأمر الله، مع كثرة سؤالهم وتعنتهم في قصة ذبح البقرة، وغير ذلك .

أما الرازي فقد جعل الجواب: أن من كان ميله إلى حبِّ المال أشدَّ من ميله إلى علوّ النفس

فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى هذين الصنفين"[٧٢]

وبنحو هذا أجاب الشيخ زكريا الأنصاري.[٧٣] فنزل الآيتين على صنفين من الشافعين؛ وهذا أحسن من جواب الكرماني السابق.

أما الغرناطي فقد نظر نظرة أعمق في سياق الآيتين، فقال: "وجه ذلك والله أعلم أنه لما تقدم في الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان وتكون في ذلك نجاته، وإذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ فهو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحساني للمأمورين بالبرّ حين قبلوا وامتثلوا أخذاً بظاهر حال الآمرين، وإن كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون."[٧٤]

فهو يوجه بذلك مناسبة تقدم الشفاعة في هذا الموضع بأنه قد سبقها ما يرشح لاتكالهم عليها - في أفهامهم السقيمة، وهو الأمر بالبرّ وامتثال الآمرين له - حسب ظاهر الأمر -أما الموضع الثاني فلم يسبقه ما يشير لشيء من ذلك؛ فلذا لم تقدم الشفاعة فيه.

وهذا الكلام لا يبعد كثيرا عما علل به الكرماني، وإن كان يدل على تعمق صاحبه في سياق الآيات بصورة أكبر.

وقد أجاب الإسكافي جوابا بديعا مؤداه أن الوجه في الأولى: أنه لما قال: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ بمعنى لا يغني أحد عن أحد فيما يلزمه من العقاب، ولا يكفر سيأته ما له من الثواب، وهو كقوله عز من قائل: ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (لقمان: ٣٣). فهذه الأشياء التي ذكر - في هذه الآية - امتناع وقوعها في الآخرة أربعة أنواع تنفى بها المكاره، وتتداوى بها الشدائد، ألا ترى العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة، وارتهنت نفسه بعظيمة، وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه، وتخليصه منه بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته وجلده فإن رأى من لا قبل له بممانعته، ولا يد له بمدافعته عاد بوجوه الضراعة، وصنوف المسألة والشفاعة، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لم تغن عنه الحالتان، ولم تنجه الخلتان من الخشونة واللين لم يبق بعدهما إلا فداء الشيء بمثله، وفكُّه من الأسر بعدله إما بمال وإما بغيره.

فإن لم تغن عنه هذه الثلاثة في العاجلة تعلل بما يرجوه من نصر في الآجلة ....فأخبر الله

تعالى أن ما يغني في هذه الدنيا عن المجرمين، وترتب هذه المراتب بين العالمين، لا يغني منه شيء في الآخرة عن الظالمين.[٨١]

ورغم هذا التحليل الرائع لبيان مناسبة الترتيب في الآية الأولى؛ فإن بيانه لمناسبة اختلاف الترتيب في الآية الثانية لم يكن مقنعا للوقوف على علة الاختلاف بين الآيتين حيث جعل تقديم العدل وتأخير الشفاعة فيه ليفيد أن معنى: ﴿لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لا تغني عنها بفداء.. ويكون بعد ذلك ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ معناه: ولا تخفف مسألة من عذابها، ولا ينقص شفيع من عقابها.[٨٢]

والحق أن هذا الكلام منه غير مقنع ؛لأنه لم يبين لنا ما الذي اقتضى هذه المخالفة في المعنى بين الموضعين مع اتحاد الألفاظ (العدل - الشفاعة) فضلا عن أن ما ذكره في معنى العدل والشفاعة في الآية الثانية ليس مخالفا في الحقيقة لما ذكره من معناهما في الآية الأولى بل هو من مقتضاه ولوازمه.

غير أن أمثل ما رأيته من كلام المصنفين في المتشابه في هاتين الآيتين: كلام ابن جماعة ؛ يقول في جوابه عن سر التقديم والتأخير في الآيتين: "إن الضمير في (منها) راجع في الأولى إلى النفس الأولى، وفي الثانية راجع إلى النفس الثانية، كأنه يبين في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها .

ويبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها ..: فلذلك كله قال في الأولى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ وفي الثانية: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له.[٨٣]

وهذا - في رأيي - أحسن ما قيل في توجيه متشابه التقديم والتأخير في الآيتين .

٧- تقديم بعض المفردات المعطوف بعضها على بعض.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (البقرة:٦٢)

مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٨٤] (المائدة:٦٩)

مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الحج :١٧)

وقد أورد الإسكافي في سر التقديم والتأخير في هذه الآيات كلاما بديعا مفصلا ، فقال في آية البقرة: «المعنى: إن الذين آمنوا بكتب الله المتقدمة مثل صحف إبراهيم، والذين آمنوا بما نطقت به التوراة، وهم اليهود، والذين آمنوا بما أتى به الإنجيل، وهم النصارى، فهذا ترتيب على حسب ما ترتب عليه تنزيل الله تعالى كتبه؛ فصحف إبراهيم عليه السلام قبل التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، فرتبهم الله عز وجل في هذه الآية على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة.

ثم أتى بلفظ (الصابئين) وهم الذين لا يثبتون على دين، وينتقلون من ملة إلى ملة، ولا كتاب لهم، كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ (الأنعام :١٥٦) فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب.

وأما بعد هذا الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة تقديم (الصابئين) على (النصارى)، ورفعه هنا ونصبه هناك ترتيب ثان لهم.

فالأول على ترتيب الكتب، والثاني على ترتيب الأزمنة؛ لأن الصابئين – وإن كانوا متأخرين عن النصارى، بأنه لا كتاب لهم – فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم؛ لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام.

فرفع (الصابئون) ونوى به التأخير عن مكانه؛ كأنه قال بعد ما أتى بخبر :إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون هذه حالهم أيضا، وهذا مذهب سيبويه ... وإنما قدّم في اللفظ وأخّر في النية؛ لأن التقديم الحقيقي التقديم لكتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، فإذا فعل ذلك في الآية الأولى – وكان هنا تقديم آخر بتقديم الزمان، وجاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه – كان هذا دليلا على أن هذا الترتيب بالأزمنة، وأن النية به التأخير والترتيب بالكتب المنزلة.

وأما الترتيب الثالث في سورة الحج فترتيب الأزمنة الذي لا نية للتأخير معه؛ لأنه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتب؛ إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتاب لهم، وهم الصابئون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان، فهذه ثلاث طوائف، وأهل الكتاب طائفتان.

فلما لم يكن القصد في الأغلب الأكثر من المذكورين ترتيبهم بالكتب رتّبوا بالأزمنة .وأخروا «الذين أشركوا»؛ لأنهم وإن تقدمت لهم أزمنة وكانوا في عهد أكثر الأنبياء الذين تقدمت بعثتهم صلوات الله عليهم -: فإنهم كانوا أكثر ممن مُني رسول الله بهم، وصلي بجهادهم، وكأنهم لما كانوا موجودين في عصر النبي (كانوا أهل زمانه، وهذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين قدّم ذكرهم.[٤٥]

وقد أوجز الكرماني وغيره[٤٦] كلام الإسكافي مع حسن بيان وإيضاح ، فقال: قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ (البقرة:٦٢)، وقال في الحج ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ (الحج:١٧)، وقال في (المائدة:٦٩) ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾: لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة ؛لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، و(الصابئون) مقدمون على النصارى في الزمان ؛لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في الحج وراعى في المائدة بين المعنيين، وقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير ؛لأن تقديره (والصابئون كذلك) ، قال الشاعر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله...   فإني وقيار بها لغريب ...

أراد :إني لغريب وقيار كذلك

فتأمل فيها وفي أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن.[٤٧]

فنلاحظ هنا أن الكرماني قد كشف عن سرّ تقديم (الصابئون) في آية المائدة، وعن سرّ مجيئها مرفوعة مقطوعة عن التبعية لما قبلها؛ لكونها مقدمة على نية التأخير رعاية لوجهي الترتيب الممكنين، وهما الترتيب بحسب الرتبة أو بحسب الزمن. بينما نلاحظ أن الإسكافي قد أطال الكلام دون إيضاح كاف لهذا المعنى ، حيث نلاحظ تعسف عباراته في هذا الموضع: من لدن قوله :" وإنما قدم في اللفظ وأخر في النية؛ لأن التقديم الحقيقي التقديم لكتب الله المنزلة ... وجاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه - كان هذا دليلا على أن هذا الترتيب بالأزمنة، وأن النية به التأخير والترتيب بالكتب المنزلة."

وعلى كلٍّ فإن له فضل السبق والإلماح إلى هذا المعنى على طول عبارته فيه .

ومن ذلك أيضا (من تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض):

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام:٣٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ (الأنعام:٧٠)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٦)

وقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد:٢٠)

وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (الأعراف٥١)

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤)

وقد اجتهد المفسرون في بيان سرّ التقديم والتأخير بين هذه الآيات. فقال الرازي: «قال هناك: (إلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ) وقال ههنا: (إلاّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ) (الأعراف٥١) فنقول: لمّا كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخّر الأبعد. وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً. فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو».

وتبعه في ذلك ابن عادل في اللباب. ولم يزد عليه.

وكلامهما في هذا الموضع – إن قبل في هذين الموضعين – غير شامل لكل المواضع.

وقد حاول الطاهر بن عاشور التوجيه البلاغي لهذا التقديم عند آية العنكبوت. فقال: وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة، وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث، كقول قيس

بن الخطيم مشيرا إلى الموت:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

ولم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام ، ووجه ذلك أن هذه الآية لم يتقدم فيها ما يقتضي تحقير الحياة ، فجيء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها ، وأما آية سورة الأنعام فتقدم قوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى .

وأما تقديم ذكر اللهو هنا وذكر اللعب في سورة الأنعام ، فلأن آية سورة الأنعام لم تشتمل على اسم إشارة يقصد منه تحقير الحياة الدنيا ، فكان الابتداء بأنها لعب مشيرا إلى تحقيرها ؛ لأن اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو."[90]

وينتقض عليه هذا الكلام بأن آية الأعراف لم تشتمل كذلك على اسم الإشارة ؛ ومع ذلك فلم تبدأ باللهو.

أما الكرماني فقد كان أكثر دقة وشمولية ، حيث ذهب إلى أنه "إنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا ،واللهو زمانه الشباب، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب ، يبينه ما ذكر في الحديد: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ ﴾ كلعب الصبيان ،ولهو كلهو الشبان ،وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الإخوان ،وتكاثر كتكاثر السلطان...

وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى،وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ،وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا،وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لأبدها، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا."[91]

فالكرماني قد بيَّن سرَّ تقديم اللعب في الجملة بما يشبه مونه الأصل الذي لا يحتاج إلى تبرير ؛وذلك لأن الأصل البدء باللعب ؛ لأنه زمن الصبا، وهو أسبق من اللهو الذي يكون في زمن الشباب، واستشهد لذلك بآية الحديد التي رأى أنها قد جاءت مقسمة على أزمان الدنيا و أحوالها.

ثم فسر تقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة،فذكر على ترتيب ما انقضى ؛ أي فسَّر على آخر عهدهم بالدنيا قبل القيامة، وهو اللهو الذي أوردهم المهالك.

أما العنكبوت فلما كان المقصد هو مقارنة الدنيا بالآخرة وبيان أنها سريعة الانقضاء قليلة البقاء، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا.

واقتصر الإسكافي على موضعين لكل نوع؛ فذكر في تقدم اللعب آيتي الأنعام والحديد. وفي تقدم اللهو آيتي الأعراف والعنكبوت.

وذهب في تعليل تقدم اللعب في الأنعام بأنه ورد في جماعة من الكفار كانوا يستهزئون بآيات الله ويتخذونها هزوا ولعبا، مستشهدا بما ورد من قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٤٠). قال: «فهؤلاء قوم حضروا النبي ﷺ، وسمعوا القرآن، وعبثوا عند سماعه، ولعبوا بآياته ...فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم: اسم اللعب.»[92]

وعلل لترتيب آية الحديد بنحو ما علل به الكرماني من بعده.

وعلل لترتيب آية الأعراف في تقديم اللهو بأنها إنما وردت في عامة الكفار «الذين شغلتهم الحياة الدنيا وحلاوتها، والولاية وغباوتها، واستجلاء ما مرنت عليه طباعها، وهذا هو اللهو.»[93]

وذهب في في بيان سرّ ترتيب آية العنكبوت إلى نحو ما ذكره الكرماني من بعده مع شيء من التفصيل والتطويل.

وقد أطال الغرناطي في هذا الموضع بكلام طويل لا يخرج عما ذكره الإسكافي وما نقلناه عن الكرماني فلم نشأ التطويل بذكر شيء منه.

وما قدمناه من كلام كلٍّ من الإسكافي والكرماني يعد تعليلا وافيا وشاملا لبيان سرّ التقديم والتأخير في هذه الآيات.

٨- تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض.

سبق أن عرضنا لتقدم متعلقات الفعل على ركن الجملة، وبقي أن نشير إلى أن التقديم الفني للمتعلقات لا يقتصر على ذلك؛ «بل هو يشمل كذلك تقديم بعضها على بعض؛ فترتيب تلك المتعلقات في الأساليب الفنية هو الترتيب الفني الذي يكون لكل لفظة من ألفاظه – في موضعها وظيفتها الخاصة التي يفرضها السياق، ويقتضيها الغرض.»[94]

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٧)

وقوله: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (المعارج: ١٤)

قال الرازي: «المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة. ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: يوم يفر المرء من أخيه، بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد؛ لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين.»[٦٥]

فالمراد إذن أن ترتيب الآية قد ورد على الترقي من الأدنى إلى الأعلى، على سبيل الإضراب عن الأدنى إلى الأعلى.

فالآيات مسوقة لتصوير هول الموقف في يوم القيامة، واضطرار الإنسان إزاء هذا الهول إلى التخلي عن أهله والفرار من أحبابه وعشيرته، وقد رتبت الآيات هؤلاء الذين يفر منهم ترتيبا يوحي بتصاعد الإحساس بهول هذا اليوم وكربه: فالمكروب يفر من أخيه قبل أن يفر من أبويه، فإذا زاد عليه الكرب فرّ من الأبوين، وبقي مستمسكا بالصاحبة والبنين؛ فإذا تضاعف عليه الهول فرّ من الصاحبة، وبقي متعلقا بولده، حتى إذا بلغ به الكرب ذروته نسي فلذات كبده، ولم يعد مهموما إلا بذاته ومصيره.[٦٦]

وبينما جاء الترتيب في آية الفرار تصاعديا، فقد جاء الترتيب في آية الافتداء تنازليا على العكس من موقف الفرار؛ وذلك لأنه موقف قد بلغ فيه الكرب والهول ذروته: وهذا ما تكشف عنه الآيات السابقة لهذه الآية من أول السورة إلى هذا الموضع، قال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴾ (المعارج: ١١)

فلشدّة الكرب وهوله ورغبة المجرم في سرعة الخلاص من الكرب والهول، فإنه يسارع بالافتداء بأعزّ ما يملك – إن كان يملك في ذلك اليوم شيئا – فليس الموقف موقف مساومة؛ ثم إذا لم يقبل ذلك منه زاد أكثر وأكثر حتى يفتدي بمن في الأرض جميعا إن كان يملك ذلك على أن ينجو بذلك.

خاتمة في أغراض التقديم والتأخير في متشابه القرآن:

من خلال ما سبق عرضه - من أمثلة البحث ومادته - نستطيع أن نلخص الأغراض التي ذكرها المفسرون والمصنفون في متشابه القرآن للتقديم والتأخير في الآتي:

١- الاهتمام: وذلك هو الغرض الأساسي للتقديم والتأخير وهو ما عوَّل عليه معظم المفسرين والنحاة والبلاغيين، وعليه دارت أكثر الأمثلة التي ذكرناها في هذا البحث، وهو ما نص عليه سيبويه كغرض أساسيّ في التقديم والتأخير، حيث قال: «كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم.»[٩٧]

٢- التخصيص: وذلك كما مرَّ بيانه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، حيث جاءت الآية على هذا النحو من تقديم (هدى الله) وتعريف الجزأين، والفصل بالضمير؛ لإفادة القصر الإضافي – قصر الهدى الحقيقي الكامل على هدى الله تعالى وحده.

٣ رعاية الفاصلة: وهو مما عوّل عليه بعض المفسرين والمصنفين في المتشابه حينما أعيتهم الحيلة في تأويل ما تشابه عليهم، وقد أوردنا لذلك في هذا البحث عددا من الأمثلة من كلامهم[٩٨]، وبينا أن النكتة في التقديم أو التأخير في تلك الأمثلة لا ترجع لمجرد رعاية الفاصلة ما لم يكن لذلك فائدة في المعنى بحيث يقتضيه المعنى تمام الاقتضاء، ولو كان ذلك سائغا لما اشتدَّ نكير البلاغيين على من يتكلف الجناس أو السجع أو غير ذلك دون رعاية للمعنى بحيث يكون المعنى هو الذي يتطلبه، كما يقرر ذلك عبد القاهر وغيره من عمالقة البيان.[٩٩]

٤- موافقة الأصل: وهذا أيضا مما عوّل عليه بعضهم [١٠٠]، وقد بينتُ في البحث أن موافقة الأصل تصلح للتعليل النحوي أو اللغوي البحت، ولكن لا يُكتفى بها في التعليل البلاغي الذي لا يكتفي فيه بموافقة الأصل، أو مجرد البحث عن الصحة اللغوية؛ وذلك لأنه كان في مقدور المتكلم الخروج على الأصل والعدول عنه، كما هو وارد في أساليب البلغاء والفصحاء بما لا يمكن إنكاره، وهو متقرر في نظام اللغة، لا تأباه ولا تنفر منه، بل تزدان به وتزداد به رونقا وبهاء، وهذا مما قرره البلاغيون في مواضع عديدة لا تطيل بذكرها.[١٠١]

هوامش البحث

١. من هذه الكتب:

١- درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ت ٤٢٠ هـ

٢- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان تأليف تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ت ٥٠٥ هـ تقريبا

٣- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام الحافظ العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ت ٧٠٨ هـ

٤- كشف المعاني في المتشابه من المثاني تأليف شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة ت ٧٣٣ هـ

٥- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن تأليف شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ت ٩٢٦هـ

٢. عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تصحيح السيد محمد رشيد رضا – ط دار المعرفة – بيروت – لبنان – ص ٨٢

٣. الكرماني – البرهان في متشابه القرآن – اعتنى به : أحمد عز الدين خلف الله – ط دار الوفاء – المنصورة – ط ٢ – ١٩٩٨م – ص ٩٧ – ٩٨

٤. انظر الخطيب الإسكافي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني – درة التنزيل وغرة التأويل ط الخانجي – ص٣ . و ابن الزبير الغرناطي ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل – تحقيق د/ محمود كامل – ط دار النهضة العربية – ١٩٨٥ ص٣

٥. ابن جماعة : محمد بن إبراهيم بن سعد الله – كشف المعاني في متشابه المثاني تحقيق د/ مجمد داود – ط١ – دار المنار – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨ م – المقدمة

٦. الزركشي – البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار التراث – ١٩٧٢ – ١/١١٣. والسيوطي الإتقان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤ ٣/ ٢٩٠

٧. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الكتاب – تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط٢ – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م – (ج ٢ / ص١٢٧) وسيأتي بيانه تفصيلا.

٨. انظر د/ تمام حسان – مقالات في اللغة والأدب ص ٣٤٧-٣٥٨.

٩. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن [٢٢٤ – ٣١٠ هـ) المحقق : أحمد محمد شاكر-الناشر : مؤسسة الرسالة ،الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م – (ج ٩ / ص ٣٥٩) وهذا على رأي من يرى أن (جهرة) حالا من واو الجماعة في قالوا، أي قالوا مجاهرين أرنا الله. وخالف في ذلك السمين الحلبي، فالآية عنده لا تقديم فيها ولا تأخير قال بعد أن حكى إعراب (جهرة) حالاً من ضمير الجماعة: " وقال بعضهم فيكون في الكلام تقديم وتأخير ومثل هذا لا يقال فيه تقديم وتأخير... بل أتى بمفعول القول ثم بالحال من فاعله فهو نظير (ضربتُ هنداً قائماً) الدّر المصون ١:٣٦٨.

أما إن جعلنا جهرة حالا من لفظ الجلالة (الله) فلا يكون في الآية تقديم ألبتة ،والمعنى : أرنا الله جهرة ظاهرا غير مستتر بشيء كما تقول رأيته جهرة وكلمته جهرة، وكون (جهرة) حالاً من لفظ الجلالة أجازه معربوا القرآن الكريم.

انظر السمين الحلبي في الدّر المصون ١:٣٦٨ والمنتجب الهمداني : الفريد في إعراب القرآن المجيد ١:٢٩٣ ، والذي أميل إليه هو القول المذكور في أصل البحث ، وقد أيدته بكلام ابن عباس – رضي الله عنه.

١٠. تفسير الطبري – (ج ١ / ص ١٢)

١١. الكتاب – (ج ١ / ص ٢٤)

١٢. دلائل الإعجاز ج ١ / ص ٩٦

١٣. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب – تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط٣ – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م – (ج ٢ / ص١٢٧)

١٤. السيرافي – الكتاب – ط بولاق ٢٨٦/١

١٥. العامري التقديم والتأخير في القرآن الكريم– ص ١٢

١٦. أي أظن أن العبادة مقدمة في اللفظ ، ولكن المعنى على تأخير العبادة عن الاستعانة ؛ من حيث كونها متوقفة على المعونة.

١٧. ديوانه – ط المكتبة العصرية – بيروت – ٧١/١

١٨. تفسير الطبري – (ج ١ / ص ١٦٤)

١٩. " لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (البقرة : ٢٨٤)

٢٠. قال تعالى: " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (المائدة:٤٠)

٢١. كشف المعاني – ص٧٤ –٧٥

٢٢. سيأتي قريبا بيان علة التقديم للصابئين أو تأخيرهم بين هذه الآية والآيات المتشابهة معها.

٢٣. سيتم الوقوف عند هذه الأمثلة لتحليلها ، وبيان علة التقديم فيها في موضعها من البحث .

٢٤. انظر : د/ فاضل السامرائي – التعبير القرآني – دار عمار – عمان ط ٦ ص ٤٩ – ٥٠ ، وسوف نعود للكلام عن الموضع الثاني تفصيلا ضمن الحديث عن تقدم بعض متعلقات الفعل على بعض .

٢٥. د/ مشهور موسى – المتشابه اللفظي في القرآن الكريم – دراسة نقدية بلاغية – عالم الكتب الحديث – الأردن – ط١ ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م – ص ١٩٧

٢٦. السابق :٢٠٥

٢٧. السابق :٢١٠

٢٨. انظر : د/ صالح عبد الله الشثري – المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية – دكتوراه – جامعة أم القرى – كلية اللغة العربية – ص ٣٩٠

٢٩. شرح الرضي على الكافية ٨٨/١ . وهذا الأصل مقرر قبل الرضي فال الجرجاني في كتابه (المقتصد في شرح الإيضاح) : قال : " اعلم أن مرتبة الخبر أن يكون بعد المبتدأ، لأنه إذا لم يُعلم ما يُخبر عنه لم يستفد من الخبر شيء... " ٢٠٣/١.

ولعله مقرر أيضا قبل الجرجاني فالمسألة تحتاج إلى تتبع.

٣٠. تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد ٥٨/٣

٣١. أبو حيان الأندلسي - ارتشاف الضرب - تحقيق رجب عثمان محمد – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ – ١٤١٨ هـ ٢٧٦/٢

٣٢. جلال الدين السيوطي - همع الهوامع – تحقيق أحمد شمس الدين - ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط١– ١٤١٨هـ ٣٣٦/١

٣٣. محمد بن أحمد الأهدل - الكواكب الدُّرِّيَّة شرح متممة الأجرومية – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢٦ هـ ١٩٠/١

٣٤. ابن عقيل (بهاء الدين) - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت ١/٢٧٦

٣٥. محمد بن علي الصبان – حاشية الصبان علي الأشموني علي الألفية تحقيق إبراهيم شمس الدين – ط دار الكتب العلمية – بيروت ١/٣٠٥ وقد ذكر ذلك عن اللقاني كذلك الشيخ يس في حاشيته وغلّطه فيه. انظر: شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري – دار إحياء التراث - بيروت ١/١٧٠

٣٦. عباس حسن – النحو الوافي – ط دار المعارف ١/٤٩٢

٣٧. د/ عودة خليل أبوعودة بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين دار البشير ط ٢ – ١٤١٨هـ ص ١٠٣

٣٨. أبوحيان الأندلسي (محمد بن يوسف) البحر المحيط مطبعة السعادة ط الأولى مصر ١٣٢٨هـ (ج ١ / ص ٤٨٢)

٣٩. الكرماني :٣٥

٤٠. ابن جماعة:ص ٦٢ ، شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي – تحقيق د/ السيد الجميلي . د/ أحمد السايح – ط مركز الكتاب للنشر – ط١ – ١٩٩٩ – ص: ٢٦

٤١. الكشاف – أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله - ط العبيكان - (ج ١ / ص ١٣٧)

٤٢. الطاهر بن عاشور- التحرير والتنوير – ط الدار التونسية (ج ١ / ص ٤٥٨)

٤٣. التحرير والتنوير (ج ١ / ص ٤٥٩)

٤٤. وذلك كما جاء في قوله تعالى في (آل عمران : ١٩) "إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ"

٤٥. وذلك في قوله تعالى: " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (٨)

٤٦. في قوله تعالى : " يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (الحديد:١٢)

٤٧. ينظر ملاك التأويل ، ٢/٨٩٣

٤٨. المبرد – المقتضب (ج ١ / ص ٣٦٥) . وقد أجاز الفراء والأخفش وابن مالك تقديم الحال على عاملها على المتصرف إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً، ومثّل له ابن مالك في الألفية حين قال:

«نحو سعيدٌ مستقراً في هجر » شرح ابن عقيل - بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني الناشر : دار الفكر دمشق – الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد – ٢/٢٧١

واستدل المجيزون بقراءة: (والسماواتُ مطويات بيمينه) في قراءة أن كسر التاء، فتكون (السماواتُ حالاً متقدمة على العامل فيها وهو الجار المجرور (بيمينه) الواقع خبراً عن مبتدأ (السماواتُ).

انظر في هذه المسألة معاني القرآن للفراء ٢/٤٢٥، والتبيان للعكبري ٢/ ١١١٤، وشرح الأشموني على الألفية ٢/١٨٧، وهمع الهوامع ٤/٢٢-٢٣.

٤٩. السكاكي – مفتاح العلوم - (ج ١ / ص ١٠٤)

٥٠. الخطيب الإسكافي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني – درة التنزيل وغرة التأويل رسالة دكتوراة – جامعة أم القرى تحقيق محمد مصطفى آيدين - ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م - ص ١٠٨٤ – ١٠٨٥.

٥١. ابن جماعة : ص ٣٠٤

٥٢. الكرماني :١٤٥

٥٣. تفسير ابن كثير (ج ١٢ / ص ٧٨)

٥٤. تفسير الألوسي – ط دار إحياء التراث – بيروت (ج ٣ / ص ٢٧٠)

٥٥. تفسير الألوسي – (ج ٢٠ / ص ٣٩٢)

٥٦. التحرير والتنوير – ط التونسية (ج ١٤ / ص ٤٦٠)

٥٧. هذا على رأي من يُعرب (مواخر) في الآيتين المتقدمتين مفعولاً ثانياً، ومنهما الكرماني وغيره، وثمة رأي آخر أن (مواخر) ليست مفعولاً ثانياً ، بل هي حال من (الفُلك) ، لأن رأى في الآيتين بصرية وليست علميّة وقد نصبت مفعولاً واحداً وهو (الفلك) وقد أوجب المنتجب الهمداني إعراب مواخر حالاً ، قال عند قوله تعالى (وترى الفلك مواخر فيه) .. " انتصب (مواخر) على الحال من الفلك، لا أنه مفعول ثانٍ (ترى) كما زعم بعضهم ؛ لأن ترى هنا من رؤية العين، لا من رؤية القلب ... " الفريد في إعراب القرآن المجيد ٢/٢١٩/٢٢٠.

٥٨. تفسير الألوسي (ج ١٦ / ص ٢٧١)

٥٩. قال تعالى : " هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ " (النحل:١٦)

٦٠. تفسير الألوسي (ج ١٦ / ص ٢٧١)

٦١. كشف المعاني ص ١٢٠

٦٢. قال تعالى : " وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ " (فاطر:١٣)

٦٣. درة التنزيل وغرة التأويل – (ج ١ / ص ٩٤٣)

٦٤. مفتاح العلوم – المطبعة الأدبية بمصر – ١٣١٧هـ ط١ (ص ١٣٩) ، وانظر الزركشي – البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم – ط دار الفكر – ١٤٠٠هـ ط ٣ – ٣/٢٨٤

٦٥. العكبري – إملاء ما من به الرحمن – (ج ١ / ص ٣٠)

٦٦. تفسير الرازي (ج ١ / ص ٤٩٨)

٦٧. تفسير الألوسي (ج ١ / ص ٣٢٩)

٦٨. الكرماني – تحقيق أحمد خلف الله – ص١٢١

٦٩. ابن جماعة – تحقيق د / محمد داود – ص ٦٧

٧٠. مشكل إعراب القرآن – ط دار الكتب العلمية – بيروت (ج ١ / ص ٥٥)

٧١. الغرناطي ص ١١٠

٧٢. الكرماني : ص ٣٢

٧٣. ابن جماعة : ص ٧٧

٧٤. الشيخ زكريا الأنصاري : ص ٥٠

٧٥. مشكل إعراب القرآن - (ج ١ / ص ٧)

٧٦. الكرماني :ص ١٣

٧٧. أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٢٤)
٧٨. تفسير الرازي - (ج ٢ / ص ٨٠)
٧٩. الشيخ زكريا الأنصاري : ص ٢٠
٨٠. الغرناطي : ص ٣٩
٨١. الإسكافي – تحقيق محمد آيدين ٢٢٨
٨٢. السابق
٨٣. ابن جماعة . ص ٥٧ ٥٨
٨٤. سيأتي قريبا بيان علة التقديم للصابئين أو تأخيرهم بين هذه الآية والآيات المتشابهة معها.
٨٥. الإسكافي – تحقيق محمد آيدين – ص ٢٥٠ – ٢٥٨
٨٦. انظر نحوا من كلام الإسكافي والكرماني عند ابن جماعة ص ٦١ . والأنصاري ص ٢٢
٨٧. الكرماني :٢١
٨٨. تفسير الرازي - (ج ١٢ / ص ١٩٧)
٨٩. ابن عادل – تفسير اللباب (ج ١٢ / ص ٤٦٧)
٩٠. التحرير والتنوير - (ج ١ / ص ٣٢١٥)
٩١. أسرار التكرار في القرآن (ج ١ / ص ٦٨)
٩٢. الإسكافي – تحقيق محمد آيدين – ٤٤/٣
٩٣. السابق
٩٤. د/ حسن طبل – علم المعاني في الموروث البلاغي – تأصيل وتقييم – مكتبة الإيمان بالمنصورة – ط٢ – ٢٠٠٤ – ص ١٢٤
٩٥. تفسير الرازي - (ج ١٦ / ص ٢٧٠)
٩٦. بلاغة العطف في القرآن الكريم ص ١٠٤
٩٧. الكتاب (ج ١ / ص ٣٤)
٩٨. وذلك كما في تعليلهم لتأخر ذكر الكبر في قوله تعالى : " وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا " (مريم:٨) . فيما أوردناه في أصل البحث عن كل من الكرماني والغرناطي وابن جماعة وزكريا الأنصاري ،وكذلك في قوله تعالى :"والله بما تعملون خبير " والله خبير بما تعملون " حيث عزاه بعضهم لرعاية الفاصلة . وكما في قوله تعالى في غير ما ذكرنا من الأمثلة : تعليلهم لتقدم هارون . في قوله تعالى "رب هارون وموسى " حيث ذهب جمع منهم إلى أنه لرعاية الفاصلة .
٩٩. أسرار البلاغة (ج ١ / ص ٣)
١٠٠. انظر على سبيل المثال فيما مرّ في البحث تعليل الكرماني وغيره تقدُّم (رجل) في قوله تعالى "وجاء رجل من أقصى المدينة " بأن هذا هو الأصل ، وكذلك كما جاء عن بعضهم في قوله تعالى : "والله بما تعملون خبير " والله خبير بما تعملون " حيث علّلت الجملة الأخيرة بأنها الأصل كذلك، وقد بينت ما يرد ذلك به.
١٠١. قال ابن الأثير :"موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من الوضع اللغوي، و تلك دلالة عامة و صاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة. و هي دلالة خاصة و المراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن. و ذلك أمر وراء النحو و الأعراب." المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - (ج ١ / ص ٢)